الملاحة الفينيقية في جزر البحر المتوسط

د. إبراهيم محمد بيومي مهران•

اشتهرالفينيقيون في العالم القديم بفضل مساهماتهم المهمة في الحضارة الإنسانية،فقد عرفوا بنشاطهم وجرأتهم وقدرتهم على الابتكار،ولاسيما في مجال الملاحة والكتابة،مما جعلهم،بالإضافة إلى ابتكارهم،خير ناقل لمختلف الحضارات التي مروا عليها،ولاسيما الحضارة المصرية،تلك الحضارة التي ارتبط الفينيقيون بأصحابها برابطة تبعية سياسية قوية امتدت لعصور طويلة[١]،كما كان الفينيقيون واسطة لنقل الحضارة بين شعوب العالم القديم،وهو الأمرالذي أكدته شواهد الآثار المكتشفة، وبخاصة الفخار منذ الألف الأول قبل الميلاد[٢]،في قبرص[٣]وفي عدد من جزر البحر المتوسط.

ولا شك أن الفينيقيين قدموا للبشرية أعظم المنجزات الحضارية طيلة تاريخهم الطويل،وما من شك في ازدهار تجارتهم ونجاحهم في تبادلهم التجاري مع مختلف الجهات قد أثار فيهم حب المغامرة للوصول إلى أسواق جديدة والبحث عن سلع مرغوبة،فلم يقتصروا على الاتجار في منتجاتهم،بل تبادلوا مختلف السلع مع الأقطار الأخرى،وقد جعلهم تنقلهم بين مختلف الأقطار رسل حضارة،ينقلون مظاهرها بين قطر وآخر،وهم الذين جعلوا حوض البحر المتوسط كله مسرحاً لحضارتهم وتجارتهم،منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد،أي قبل الرومان بأكثر من ألف وخمسمائة سنة[٤]،كما أنهم قد تأثروا بثقافة البلدان الأخرى وأثروا فيها.[٥]

وكان وجود المدن الفينيقية بين دول أكبر منها كثيراً حائلاً في العادة بينها وبين تكوين دول سياسية قوية،ومن ثم مالت إلى أن تظل دولاً مستقلة صغيرة،أهميتها تجارية أكثر منها سياسية،وهذا يصدق أيضاً على مدن الساحل الفينيقي،ولكن خضوعها لسيادة

• **د. إبراهيم محمد بيومي مهران -أستاذ التاريخ القديم المساعد-كلية الآداب – جامعة عين شمس**

[١] صلاح أبو السعود: تاريخ وحضارة الفينيقيين، مكتبة النافذة، القاهرة ٢٠١١، ص ٣.

[٢] Iacouvou, M., "Phoenicia and Cyprus in the First Millennium B.C.: Two Distinct Cultures in Search of Their Distinct Archaeologies", ***BASOR*** 336, 2004, p. 61.

[٣] cf, Iacouvou, M., "The Pictorial Pottery of Eleventh Century B.C. Cyprus", ***SMA*** 79, 1988.

[٤] خزعل المالكي:المعتقدات الكنعانية،دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان-الأردن٢٠٠١،ص٣٧– ٣٨.

[٥] محمد الخطيب:الحضارة الفينيقية،دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،الطبعة الثانية،دمشق ٢٠٠٧، ص ٦.

الدول العظمى خضوعاً مقنعاً بقناع خفيف لم يمنعها مطلقاً من بلوغ سيادتها في التجارة بحراً.[٦]

ولم يمنع عدم تكوينهم لدولة أو امبراطورية واحدة من تعطيل عطائهم الحضاري[٧]،ولعل أقدم منجزاتهم الحضارية قاطبة هي تأسيسهم لتلك المدن العظيمة، التي كان لها الأثر الأكبر في العالم القديم.[٨](انظر خريطة رقم ٢).

ولا ريب في أن الفينيقيين إنما كانوا جنساً حاذقاً،فقد نجحوا في الحرب والسلم، ونبغوا في الكتابة والآداب،فضلاً عن بعض الفنون الأخرى،كقيادة السفن،والحروب البحرية،وفن الحكم[٩].ولم يكن الفينيقيون أول أمة بحرية فحسب،بل كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر.[١٠]

ولم يكن الفينيقيون الذين أقاموا في سورية الشمالية سماسرة فحسب،وإنما قد نقلوا فن المدنيات الآسيوية العديدة إلى كل الشواطئ التي كان لهم فيها محطات،وإلى كل الشعوب التي تربطهم بها صلات تجارية،فمصنوعاتهم لم تكن أكثر ابتكاراً من المصنوعات اليهودية أو الكنعانية،ونجد فيها خليطاً من الفن المصري والفن الآشوري، وهذان العنصران لو وضعهما شعب حاذق موضع التنفيذ لتمخض عنهما،دون شك، فن جديد لخصهما واستوعبهما،موفقاً بين اختراعاته الخاصة بالنبوغ القومي،كما كان الحال في اليونان مثلاً،بيد أن الفينيقيين الذين كانوا منهمكين بالتجارة بصورة خاصة اكتفوا بما

---

[٦] سبتينو موسكاتي:الحضارات السامية القديمة،ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر،دار الرقي،بيروت ١٩٨٦،ص ٣٧.

[٧] في بداية تاريخهم انطلقت قبائل سامية من الجزيرة العربية في الهجرة الثانية، حوالي ٢٩٠٠ ق.م، واستوطن قسم من هؤلاء المهاجرين(الفينيقيين)الساحل السوري،بينما استقر قسمهم الآخر في سورية الداخلية وفلسطين،وشكلت المدن التي بنوها في بلاد الشام والساحل السوري ممالك مدن مستقلة. راجع:أحمد ارحيم هبو ومحمد مصطفى:"الفينيقيون والفينيقية"،مجلة بحوث جامعة حلب،العدد الثاني عشر، ١٩٨٨،ص ٣٥.ولم تتحد دول فينيقيا الصغيرة أبداً في دولة واحدة،بل عاش كل منها حياته السياسية،وعبر التاريخ تميزت أربع ممالك هي"أوجاريت"،"جبيل"،"صيدون"،و"صور"،بغناها ومناعتها، وقبل أن يغزو"تحتمس الثالث"فلسطين وسورية كانت الممالك الفينيقية مستقلة،وكانت"جبيل" و"أوجاريت" تشغلان المكانة الأهم.راجع:نجيب العقيقي:"الفينيقيون وقرطاجنة"،المجلة،العدد ٤٢،السنة الرابعة،القاهرة،يونيو١٩٦٠؛عدنان البني:"رحلة مع الكنعانيين"،آفاق المعرفة،العدد ٥٠٤،دمشق،أيلول ٢٠٠٥؛ف.دياكوف وس.كوفاليف:الحضارات القديمة،الجزء الأول،ترجمة نسيم واكيم اليازجي، الطبعة الثانية، دار علاء الدين،دمشق ٢٠٠٦،ص ١٦٦.

[٨] خزعل الماجدي:المرجع السابق،ص ٣٨.

[٩] محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، تاريخ لبنان القديم،دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤،ص ٧.

[١٠] محمد الخطيب: المرجع السابق، ص ٧٢.

حصلوا عليه من آشور ومصر من عناصر الصناعة،فكانت الاقتباسات الغريبة واضحة إلى حد يجعل التعرف عليها يسيراً.[١١]

ولا شك في أن الظروف الطبيعية والحضارية لعبت دوراً كبيراً في اتجاه الفينيقيين إلى البحر واعتمادهم عليه في صميم حياتهم،فبالإضافة إلى صيد الأسماك فقد حصلوا منه أيضاً على نوع ما من الأصداف (المحارات)،استخرجوا منه نوعاً من الأصباغ[١٢]،كان له أثر غير مباشر في نشاطهم التجاري،إذ كانوا يصبغون به منسوجاتهم[١٣]التي تزايد الإقبال عليها،واشتهرت باسم الأرجوان[١٤]،واستورد الفينيقيون الحرير الغالي الثمن من الصين،وصبغوه بالأرجوان الفينيقي المحلي الصنع[١٥]، وارتفعت أثمان هذه المنسوجات حتى أصبحت من ملبوسات الملوك وعلية القوم ورمزاً لهم،حيث كان الواحد منهم يوصف بأنه "مولود في الأرجوان"،ولم يكتف الفينيقيون بالحصول على هذه الأصداف من سواحلهم،بل كانوا يجلبونها أيضاً من سواحل بعيدة.[١٦]

وأياً ما كان الأمر،فقد ظهرت مع بزوغ العالم الفينيقي ظاهرة جديدة هي البحر،وسواء أكان ذلك هو البحر المتوسط أو البحر الأحمر أو غيرهما،فقد اتجه

---

[١١] أرنست بابلون:الآثار الشرقية لحضارات كلدية وآثور وبابل وفارس وسورية وفينيقية واليهودية وقرطاجة وقبرص،ترجمة مارون عيسى الخوري،فهرسة منى حداد يكن، الطبعة الأولى،طرابلس– لبنان ١٩٩٧،ص ١٨٧.

[١٢] كان الفينيقيون يصبغون ألبستهم باللون الأرجواني المائل للبني،والتي كانوا يستخرجونها من بعض المحارات البحرية. Hitti, Philip K. History of Syria: Including Lebanon and Palestine, London 1951, p. 80; Moscati, S., The World of the Phoenicians, translated by Hamilton, A., London 1968, p. 3.

[١٣] لمع اسم الفينيقيين في صناعة الصباغ الأرجواني بلونيه،الزهري والقرمزي،مع العلم أنهم لم لم يتاجروا بالصباغ الأرجواني نفسه،بل بالأقمشة المصبوغة منه،وكان باهظ الثمن،والحصول عليه يكلف مبالغ طائلة.راجع:أحمد حامدة: "الملك والأسرة المالكة في فينيقية"،مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩ و٥٠،آذار– حزيران ١٩٩٤،ص ١٣٢.

[14] Frederick, P., The Phoenicians, New York 1963, p. 22.

[١٥] وحسب تقدير بعض العلماء فقد كان كل نصف كيلو جرام من الحرير يكلف حوالي ثمانية وعشرين ألف دولار. راجع: أحمد حامدة: "التجارة الكنعانية(الفينيقية)في البحر المتوسط"،دراسات تاريخية،لجنة كتاب تاريخ العرب–جامعة دمشق،السنة الثانيةوالعشرون،العددان٧٣–٧٤،آذار- حيزران ٢٠٠١، ص ٦٩؛ Klengel, H., Handel und Händler im alten Orient, Leibzig 1979, s. 212 – 213; Hitti, Philip K., op.cit, p. 95.

[١٦] محمد أبو المحاسن عصفور:المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١،ص ٥٣.

الفينيقيون إلى البحر عن قصد منهم[١٧]،وكان البحر هو الذي حدد مصيرهم وخطط مستقبلهم[١٨]،فقد كانوا يعيشون على الساحل،بين"خليج أصّوص"إلى الشمال،وجبل الكرمل إلى الجنوب[١٩]، وكانت "صيدا" و"صور" و"ببلوس" و"أرواد" هي بعض دويلات المدن الرائعة التي كان لكل منها مؤسساتها وشعائرها وعاداتها وأعرافها.[٢٠]

ويبدو من خلال المصادر المرتبطة بمدينة"صور"[٢١]الفينيقية أن التجارة والتفتيش عن المواد الأولية المعدنية والحيوانية (العاج)،وإيجاد أسواق لتصريف السلع

---

١٧ وهناك من يرى بأن رحلات الفينيقيين داخل حوض البحر المتوسط لم تكن عملاً اكتشافياً، لأن طرق المواصلات الرئيسية كانت معروفة ومطروقة منذ عصر البرونز الأول على الأقل، إن لم تكن قبل ذلك أيضاً. انظر: عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٣٢؛ حسن عبد العزيز أحمد: "الفينيقيون وإسهاماتهم الحضارية"، الدارة، العدد الرابع، السنة الخامسة، الرياض، رجب ١٤٠٠هـ/ يونيو ١٩٨٠، ص ١٦٩.

١٨ كانت التجارة عبر البحار تمثل مصدر ثراء دول المدن الفينيقية،فقد ملأ سكان المدن البحرية والبحارة مدينة "صور"بالسلع،حتى أنهم قد جعلوا منها "متجر الأمم".انظر:كارلهاينز برنهردت:لبنان القديم،ترجمة:ميشيل كيلو،مراجعة:زياد منى،الطبعة الأولى،دمشق ١٩٩٩،ص ١٢٢.ونفس هذا الأمر يؤكده لنا حزقيال تأكيداً خاصاً كما جاء نصاً: "... وبخروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين،وبكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض ...".(سفر حزقيال ٣٣ : ٢٧).

١٩ كان الفينيقيون،وهم من أصل سامي،يقيمون في منطقة فلسطين،ثم اضطروا بعد غزو الهكسوس ودخول العبريين إلى الانحسار على الساحل الذي كان لهم فيه منذ الألف الثالث قبل الميلاد مدن معروفة،مثل أوجاريت Ougarit "راس شمرا" Ras Shamra،في مواجهة الطرف الشرقي لقبرص، ثم أخذت مدنه تمتد على هذا الشريط الساحلي،وكان أهمها "صيدا" Sidon و"صور" Tyr و"بيروت" Beryte. راجع: محمد بدر:"الفينيقيون ونشاطهم الاقتصادي"،مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة عين شمس،السنة السابعة عشرة،العدد الأول،يناير ١٩٧٥،ص ٢؛أحمد ارحيم هبو ومحمد مصطفى،المرجع السابق،ص ٣٥؛وكذا: Aymard, A. et Auboyer, J., "L' Orient et la Grèce antique", 4c éd., Paris 1961, p. 232; Imbert, J., "Histoire économique", Paris 1965, p. 30.

٢٠ محمد فنتر: "على هدى الفينيقيين"،مجلة رسالة اليونسكو،العدد ٢٧١،ديسمبر ١٩٨٣،ص ٤.ولعل من أشهر رحلات الفينيقيين البحرية تلك التي استغرقت زهاء ثلاثة أعوام،دارت فيها سفن الفرعون "نخاو الثاني"(من الأسرة ٢٦)،بملاحيها الفينيقيين حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح،قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي عام.انظر:محمد بيومي مهران:مصر،الجزء الثالث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٦٤٢ – ٦٤٣؛ محمد الخطيب:المرجع السابق، ص ٧٢. ولم يكن "نخاو الثاني" = =هو وحده الذي استغل مهارة الفينيقيين البحرية،وإنما سبقه إلى ذلك سليمان عليه السلام (٩٦٠ – ٩٢٢ ق.م).انظر:محمد بيومي مهران:المدن الفينيقية،ص ٢٧٣؛وكذا: Keller, W., The Bible As History, Random House Publishing Group, 1983, p. 402.

٢١ تأسست مدينة"صور"في الأصل على جزيرة في البحر المتوسط،وكانت تقع وسط السهل الممتد من "رأس الأبيض"في الجنوب حتى مصب نهر القاسمية في الشمال،وأطلق الصوريون على مدينتهم اسم "صُر" Sr الذي يمكن إرجاعه إلى الأصل"طر"والذي يعني في أكثر اللهجات السامية الصوان أو

المصنعة في صور كانت من الدوافع الأساسية للقيام بعملية الانتشار في البحر المتوسط وتأسيس المدن والمحطات[٢٢]،فقد كان الفينيقيون قوة تجارية لا منافس لها،وقد شحنوا منتجات بابل وآشور إلى العالم اليوناني وشمال أفريقيا وغيرها من البلدان[٢٣].

وعرف الفينيقيون كيف يطورون قبل كل شيء حرفاً كثيفة الصادرات، كصناعة الزجاج والنسيج،أو كفروع تصنيع المعادن المختلفة المعمولة من مواد خام مستوردة رخيصة الثمن،وفهموا كذلك كيف يكيفون أنفسهم ببراعة مع متطلبات السوق، على غرار ما يفعله عادة منتج،هو في الوقت نفسه تاجر،فلم يتخصصوا في إنتاج سلع نوعية مرتفعة الأثمان فحسب، بل قدموا كذلك عرضاً سلعياً متنوعاً[٢٤]، يغطي حاجات عموم الناس،فتاجروا بالعاج والذهب والأحجار الكريمة من أفريقيا، والبخور والطيوب والتوابل من الهند واليمن،والكهرمان والحرير من آسيا الصغرى والصين[٢٥].

كما كانت الحبوب والبقر والخيل والغنم والماعز والخشب والذهب والفضة والنحاس والبرونز والرصاص والقصدير والحديد والفيروز والزمرد والأحجار الكريمة بأنواعها المختلفة والعاج وعظام وقرون الحيوانات المختلفة والبخور والبيرة والخمور والزيوت والأواني والثياب والأسلحة والأثاث والمصوغات أهم السلع في تجارة صور والفينيقيين عامة مع مصر خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد.[٢٦]

الحجر الحاد، دالاً بذلك على طبيعة الجزيرة الصخرية القاسية التي بنيت عليها المدينة، فصور تعني في الفينيقية الصخرة،وكان "تحتمس الثالث" أول من ذكر"صور"في نقوش بمعبد الكرنك،على شكل *ḏr* حيث يحل حرف *ḏ* محل الصاد السامية.انظر:معن عرب:"صور حاضرة فينيقيا"،١٩٦٩، ص ٥؛ وكذا: Sethe, K., Urkundin der 18. Daynastie, Berlin 1907, s. 779.

[٢٢] أنطوان قسيس:"ركائز السلطة الاجتماعية والاقتصادية في مملكة صور الفينيقية"،صور: وثائق المؤتمر الثاني لتاريخ صور، أيار١٩٩٧، ص٧٧؛ cf, Kassis, A., Approche aux cultures méditerranéennes des origins, (éd. de la Commuanauté Méditerranéennes, n 2), Liban 1996, p. 41 – 49. وعن العلاقات القديمة بين مصر وصور،راجع:عصام محمد السعيد عبد الرازق:"علاقة مصر بصور حتى نهاية الدولة الحديثة الفرعونية،دراسة تحليلية للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية"،صور: وثائق المؤتمر الثاني لتاريخ صور،أيار ١٩٩٧، ص ٥٦ – ٦٥.

[٢٣] إبراهيم محمد علي الهلالي:"علاقة بلاد الرافدين بالساحل الفينيقي من العصر الآشوري الحديث حتى نهاية العصر الكلداني(٩١١ – ٥٣٩ ق.م)دراسة تاريخية حضارية،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م، ص ١٨٢،أحمد حامدة:المرجع السابق،ص ٦٤.

[24] Bikai, P.M., "The Phoenician Imports", Karageorghis, V., Excavations at Kition iv, The non-Cypriot Pottery, Nicosia, 1981, p. 23 - 35.

[٢٥] نجيب العقيقي: المرجع السابق، ص ٥٠.

[٢٦] معن عرب:المرجع السابق،ص ١٠٤؛وكذا Helck, W., "Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend v. Chr.", ***ÄA***, Band 5, 1962, s. 391 – 461.

ويعطينا"حزقيال"في الإصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة،فيذكر من بين وارداتهم الهامة:الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا،والرقيق وأواني النحاس الأصفر من أيونيا،والكتان من مصر،والغنم والماعز من شبه جزيرة العرب.[٢٧]

وأنتج الفينيقيون سلعاً رخيصة جداً،يرجح أنها قامت على المحاكاة والتقليد، بيعت إلى جانب أقمشة الأرجوان النفيسة،كما عرفوا كيف يزيدون تصريف منتجاتهم بالبحث عن أسواق جديدة وفتحها، واستخدموا أخيراً،خبراء يعملون في الخارج،من أجل إدارة شكل من أشكال الاقتصاد الخارجي.[٢٨]

ومن المعروف تاريخياً أن الفينيقيين كانوا هم أول من أنتج أربع مواد أساسية، كانت مفقودة لدى بلدان حوض البحر المتوسط،وهي:الأخشاب والقمح والزيت والخمور[٢٩]،ثم حملوا بعد ذلك منتجاتهم الصناعية المشهورة،مثل المصنوعات المعدنية والمنسوجات،وكان خشب الأرز الجيد بالذات مطلوباً وقتذاك في مصر والعراق،حيث كان يستخدم بشكل أساسي في تشييد المعابد الكبرى والقصور الملكية،وكذا في صناعة قوارب الصيد والسفن التجارية وسفن الأساطيل،وكانت أخشاب لبنان المستقيمة والمستديرة تمدهم بحاجاتهم من الأخشاب[٣٠]،وعرف الإغريق الأرز اللبناني تحت اسم الأرز الفينيقي.[٣١]

---

[٢٧] فيليب حتى:تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور جورج حداد والدكتور عبد الكريم رافق،دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢،ص ١٠٧ – ١٠٨.

[٢٨] كارلهاينز برنهردت:المرجع السابق،ص ١٢١ – ١٢٢.

[٢٩] وهناك الآلاف من كسر الفخار الفينيقي،وبخاصة من منتجات صور،عثر عليها العلماء في حفائر متفرقة بقبرص على مر سنوات طويلة، ونشرت عنها دراسات عديدة. cf: Bikai, P.M., The Pottery of Tyre, Warminster 1978; Iacouvou, M., Phoenicia and Cyprus, p. 61 – 66; Negbi, O. op.cit, p. 603 – 606.

وقد تواصلت التنقيبات الأثرية منذ فترة في عدة مواقع بالقرب من حوض البحر المتوسط. وهناك أبحاث هامة ومتميزة عن الفخار البونيقي وتاريخه وطرزه المختلفة، منها: Harden, D. B., "The Pottery from the precinct of Tanit at Salammbô, Carthage", Iraq 4, 1937, p. 59 – 89; Cintaz, P., Céramique Punique, Paris 1950; Culican, W., "Aspects of Phoenician Settlement in the West Mediterranean", Abr-Nahrain I, 1959 - 1960, p. 36 - 55;=Bisi, A. M., La Ceramica Punica, Aspetti e proplem, Napoli 1970; =Cintaz, P., Manuel d' archéologie punique I , II, Paris 1970 , 1976; Culican, W., "The Repertoire of Phoenician Pottery", Phönizier im Westen (Madrider Beiträge 8), p. 45 – 78.

[٣٠] حسن أحمد محمود وآخرون:حضارة مصر والشرق القديم،القاهرة، د.ت،ص ٣٩٤.

[٣١] أحمد حامدة:المرجع السابق،ص ٦٣.

إن نشاطاً اقتصادياً على هذه الدرجة من التنوع والشمول كان يزدهر ما إن تتوفر له أعداد كافية من وسائط نقل أجنبية بالدرجة الأولى في تجارتها مع الأجزاء الداخلية من الشرق الأدنى،فكانت تشتري،في أحسن الأحوال،خدمات قوافل مستأجرة، لذلك لم تحصل هنا على أرباح إضافية تستحق الذكر من النقل البري لسلعها،يضاف إلى هذا أن الفينيقيين لم يكونوا يسيطرون بأنفسهم على طرق المواصلات،التي كانت خاضعة لشركائهم التجاريين،فكانوا يتركون أعمال ومخاطر النقل لزبائنهم،ولمن يوردون لهم ويشترون منهم.أما النقل البحري فكان مختلفاً كل الاختلاف،إذ كانت شواطئ البحر الأبيض المتوسط القريبة والبعيدة مفتوحة أمام الفينيقيين.[٣٢]

ولما كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقي تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية،وتجبر السكان على أن يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً آخر بأن يتجهوا إلى البحر،هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة جانب من السكان،يتزايد عددهم باستمرار،ولم تعد الزراعة تكفي لإطعام آلاف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية،فكان لزاماً على الفينيقيين أن يلتمسوا لأنفسهم سبلاً أخرى للمعيشة، أو ينطلقوا إلى مجال التجارة،ويتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، (انظر خريطة رقم ١)،زد على هذا أن سفوح لبنان تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن[٣٣]،فلم تصدر غابات لبنان الكبرى الأخشاب فحسب،بل أنتجت القار(الزفت)، والصمغ(الراتنج)أيضاً لسد شقوق السفن[٣٤].

ويبدو أن تعامل الفينيقيين مع البحر قد بدأ منذ عهد مبكر جداً من تاريخهم، برحلات بحرية قصيرة، لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج والصلصال، ثم لبيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى،ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد،حينما ضغط الآراميون عليهم في وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب، فلم يجدوا مفراً من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم،فقد كان هو المخرج الوحيد.[٣٥]

وكان البحارة الفينيقيون في بداية أمرهم يتنقلون في البحر مساحلة[٣٦]،متجنبين مغامرة التوغل في البحار[٣٧]،أو أنهم يقطعون مسافات قصيرة،ويفضلون الالتجاء إلى

---

[٣٢] كارلهاينز برنهردت:المرجع السابق،ص ١٢٢.

[٣٣] محمد بيومي مهران:المدن الفينيقية،ص ٢٦٩.

[٣٤] أحمد حامدة:المرجع السابق،ص ٦٣.

[٣٥] حسن أحمد محمود وآخرون:المرجع السابق، ص ٣٩٢.

[٣٦] كارلهاينز برنهردت:المرجع السابق،ص ١٢٢.

[37] Sauvage, C., "Marine et navigations phéniciennes",in La Méditerranée des Phéniciens de Tyr à Carthage,catalogue de l'exposition de l'Institut du Monde Arabe,Paris,Novembre 2007,p 97.

جزر صغيرة أو إلى رؤوس ساحلية يمكن لسفنهم أن ترسوا عليها[٣٨] وتحتمي بها من هياج البحر-وينبغي أن تكون خلف هذه الأماكن مناطق داخلية يعيشون فيها،مهما صغرت مساحتها،على أن يكون بها مصدر أو مصادر للمياه العذبة—ولم يكن من الأهمية لهم أن تكون سواحل تلك الأماكن ذات عمق كبير،لأن سفنهم لم يكن غاطسها عميقاً،ورسوها في المياه الضحلة كان أكثر أمناً،وكان الملاحون قديماً يرسون بسفنهم ليلاً،ثم يستأنفون الإبحار نهاراً،وعلى ذلك يمكن تعيين أماكن رسوهم بتقدير المسافة التي كان يمكنهم قطعها بين كل مرحلة والمرحلة التي تليها[٣٩].

ولم يبرع الفينيقيون في صناعة السفن فحسب،وإنما برعوا كذلك في فن الملاحة وتعمقوا فيه،حتى أصبحوا أجود بحارة العصور القديمة[٤٠]،وساعدهم على ذلك كثيراً اكتشاف أهمية النجم القطبي[٤١]،فيروى الأقدمون أن الصوريين كانوا أول من عرف أهمية النجم القطبي للملاحة[٤٢]،فأقبلوا على الإبحار ليلاً،معتمدين على النجوم، وقد تعلم الإغريق هذا الفن منهم،حتى أن أسماء النجوم الإغريقية هي نفسها الأسماء الفينيقية[٤٣]،وهكذا فقد كانوا يبحرون بناء على خطط مرسومة،واستطاعوا بعد تجارب طويلة أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق كشفوها واستخدموها،ثم احتكروها[٤٤].

وهكذا لم يكن الفينيقيون يسيرون في البحر بغير هدى،ولم يكونوا قراصنة،كما تصورهم الأساطير الإغريقية المتعددة،وإنما كانوا يبحرون بناء على خطط مرسومة، حيث درسوا طرق الملاحة البحرية،وربطوا بلادهم بخطوط بحرية مع بلاد اليونان وشمال أوروبا والخليج العربي والهند وغيرها[٤٥]،واستطاعوا أن يشقوا لأنفسهم طرقاً، لعل من أهمها ذلك الطريق الذي يمر من صيدا إلى صور،ثم يمر بمصر مباشرة،أو قد يتجه إلى قبرص،ثم يتجه غرباً إلى طوروس وليسيا،عن طريق رودس وكريت،ثم يتجه

---

[٣٨] كان الفينيقي يحرص على دفن موتاه في مقابر منحوتة في أعماق الصخر،ولذا فقد عمد الفينيقيون إلى اختيار الأماكن التي بها تلال صخرية يمكنهم حفر قبورهم فيها.انظر:محمد أبو المحاسن عصفور:المرجع السابق، ص ٥٣- ٥٤.

[٣٩] محمد أبو المحاسن عصفور:المرجع السابق،ص ٥٣.

[٤٠] ف. دياكوف و س.كوفاليف:المرجع السابق،ص ١٦٨.

[٤١] نجيب العقيقي:المرجع السابق،ص ٥٠.

[٤٢] معن عرب:المرجع السابق،ص١٠٤؛وكذا: Picard,G.,Das Wiederentdeckte Karthago, Frankfurt 1957,s. 78.

[٤٣] وأشهرها نجم "الدب الصغير" الذي سماه الإغريق "فوينيكي" Phoinike أو النجم الفينيقي. انظر:ج. كونتنو:المرجع السابق،ص ٣٥٠.

[٤٤] محمد السيد غلاب:الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ،دار العلم للملايين،بيروت ١٩٦٩،ص ٤٥٠؛محمد بيومي مهران:المدن الفينيقية،ص ٢٧١.

[٤٥] خزعل الماجدي:المرجع السابق،ص ٣٨.

إلى صقلية،ثم شمال أفريقيا ثم أسبانيا[٤٦]،وهناك طرق أخرى فرعية تتجه إلى الشمال أو إلى الجنوب،ومن ثم فقد حق لهم أن يسموا أول أمة بحرية في العالم،وأول أمة جمعت بين النشاط في البر والبحر.[٤٧]

وكان الفينيقيون يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا،وبما أنهم يمثلون أمة صغيرة فإنهم كانوا يتسربون إلى المناطق الجديدة من دون أن يثيروا الشكوك حولهم، وتطورت مراكزهم التجارية الواحد بعد الآخر إلى مراكز للسكن،ثم تطورت الأخيرة كذلك إلى مستوطنات أو مستعمرات[٤٨]،أوباختصار إنشاء اوطان جديدة لهم دون حرمان السكان الأصليين من حقوقهم[٤٩].

وبلغوا أوج ازدهارهم مع بداية الألف الأولى قبل الميلاد،حيث أسسوا مستعمرات كانت بمثابة مراكز تجارية عظيمة،وسط البحر الأبيض المتوسط وغربه[٥٠]، ثم اتصلت هذه المستوطنات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة، وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل كيليكية(قليقية)واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط،فجعلته بحراً متوسطاً حقيقياً.[٥١]

وعندما كانت سفنهم في البداية معدة للأحمال الخفيفة فإنهم لهذا لم يكونوا يزجون بأنفسهم طواعية في عرض البحر،ولاحظوا لذلك أن تكون مستعمراتهم ومدن الساحل الشامي أيضاً غير متباعدة،بحيث لا يكون بين بعضها وبعض إلا ملاحة يوم واحد،فكانت السفن تجد مساء كل يوم ملجأ تأوي إليه،فإذا أرادوا المغامرة إلى أبعد من ذلك كانت جزر الأرخبيل لهم عبارة عن مراحل مريحة،وعن طريقها كانوا يصلون إلى بلاد اليونان[٥٢].

وهكذا فلم تقتصر سكنى الفينيقيين وآثار مدنيتهم على الساحل الشرقي للبحر المتوسط،بل أنهم انتشروا في شمال أفريقيا بدءاً من طرابلس في ليبيا وانتهاء بطنجة في

---

[46] Aubet, M. E., The Phoenicians and the West: Politics, Colonies and Trade, translation English of the second edition, Barcelona 1994, p 307.

[٤٧] فيليب حتى:المرجع السابق،ص ١٠٥ – ١٠٦؛محمد بيومي مهران:المغرب القديم،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية ١٩٩٠،ص ١٧٥؛حسن أحمد محمود:المرجع السابق،ص ٢٩٣.

[٤٨] أدى تنقل الفينيقيين في البحر إلى تبادل التجارة مع الأماكن التي ترسو سفنهم على سواحلها،وشيئاً فشيئاً أنشأوا مراكز تجارية لهم ومراكز استيطان تتوافر لهم فيها وسائل المعيشة والأمن.
انظر:محمد أبو المحاسن عصفور:المرجع السابق،ص ٥٣.

[٤٩] محمد فنتر:المرجع السابق،ص ٥.

[٥٠] زيدون حمد المحيسن ومولاي محمد جانيف:"الفينيقيون(البونيقيون)بشمال إفريقيا في ضوء البحث الأثري"،أدوماتو،العدد الثالث عشر،ذو الحجة ١٤٢٦هـ/ يناير كانون الثاني ٢٠٠٦م،ص ٧٤.

[٥١] محمد الخطيب:المرجع السابق،ص ٧٣.

[٥٢] ج.كونتنو:المرجع السابق،ص ٣٥٠.

المغرب،وكانت قرطاجة[٥٣]أكبر مؤسساتهم وأغناها وأقواها،كما أنه كان لهم انتشار في قبرص[٥٤]ومالطة وصقلية وسردينيا وأسبانيا[٥٥].

ومن المرجح أن التوسع الفينيقي بدأ في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، عندما تحول الفينيقيون إلى القسم الغربي من البحر المتوسط،وأقاموا عليه إمبراطورية من أسبانيا حتى صقلية وأفريقيا الشمالية[٥٦]، حيث يذكر بعض الكتاب الكلاسيكيين أن "قادس"[٥٧]أسست في سنة ١١١٠ ق.م،و"أوتيكا"على الساحل الشمالي لأفريقيا،غرب قرطاجة،في سنة ١١٠١ ق.م[٥٨]،أو ١١٠٠ ق.م[٥٩]،أما "ليكسوس"على الساحل الأطلنطي لأفريقيا،فإنها كانت قبل ذلك.

وإذا كان تاريخ التوسع الفينيقي يطرح أمامنا إشكالية تحديد بداياته الأولى، والتساؤل المستمر حول إقرار ماهية المستعمرة الفينيقية الأقدم،وإلى أي فترة زمنية يرجع تاريخها؟

---

[٥٣] اسم"قرطاجة"أو"قرطاج"مركب من كلمتين:"قرت"ومعناها القرية أو المدينة،و"حدشت"ومعناها الجديدة،إذن قرطاج معناها المدينة الجديدة.انظر:زيدون حمد المحيسن ومولاي محمد جانيف:المرجع السابق،ص٨٥،هامش رقم٢.وحددت البعثات الأثرية الحديثة موقع قرطاجة بين كل من"سبخة الريانة" شمالاً وتونس جنوباً.راجع: Bondi, S. F., "City Planning and Architecture", Phoenician, ed Moscati, S. p. 259.

[٥٤] وتؤكد شواهد الآثار المكتشفة أن بداية ذلك الانتشار ترجع إلى منتصف عصر البرونز تقريباً. Negbi, O., op.cit, p. 603.

[٥٥] نقولا زيادة:"المدنية الفينيقية"،تاريخ العرب والعالم،السنة الثالثة،العدد السابع والعشرون،بيروت كانون الثاني(يناير) ١٩٨١،ص ٢٨.

[٥٦] نجيب العقيقي:المرجع السابق، ص ٥٠.

[٥٧] تعتبر مدينة "قادِس" أو "غادِش"، وبالإسبانية Cádiz "جادس" بمعنى الجدار، واحدة من أعرق المدن الأسبانية الساحلية الواقعة شمال غربي جبل طارق، في الجنوب الأسباني وهي أيضاً عاصمة مقاطعة قادس ومبنية على شبه جزيرة ضيقة وطويلة تمتد إلى داخل خليج. انظر: نجيب العقيقي: المرجع السابق، ص ٥٠.

[٥٨] ورد في تجميع متأخر ينسب خطأ إلى أرسطو ما يلي: "يذهب في اعتقاد الناس عامة أن الفينيقيين أسسوا "أوتيكا"٢٨٧ سنة قبل قرطاج،وذلك طبقاً لما ورد في التواريخ الفينيقية"،فإذا أضفت ٢٨٧ إلى ٨١٤ تاريخ مولد قرطاج،كانت النتيجة ١١٠١.انظر:محمد حسين فنطر:"حول حضور الفينيقيين في غربي البحر المتوسط وتأسيس قرطاج"، الدروس العمومية،دروس السنوات الجامعية ١٩٩٠/ ١٩٩٣، منشورات كلية الآداب منوبة–جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد الثاني ١٩٩٥، ص ١١٢.

[59] Culican, W., "Aspects of Phoenician Settlement in the West Mediterranean", ***Abr-Nahrain*** I, 1959 - 1960, p. 37 - 38; Negbi, O., "Early Phoenician Presence in the Mediterranean Islands: A Reappraisal", ***AJA*** 96, 1992, p. 599.

ويتفق معظم الباحثين-استناداً على مصادر كلاسيكية-على أن الحركة التوسعية الفينيقية سابقة زمنياً للمد الاستعماري اليوناني،ويمكن إرجاع بداياتها الأولى إلى نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد،أما إذا أخذنا رواية"بليني"بعين الاعتبار فإن استيطان الفينيقيين لليكسوس Lixus على الساحل الأطلسي المغربي سيكون أبكر مما نعتقد[٦٠]،بل أن "ديودور الصقلي" يذهب إلى أن استيطان الفينيقيين للشمال الأفريقي كان قبل استيطان "قادس"[٦١].

ومهما كان الأمر فإن انتشار الفينيقيين غرباً جاء في أعقاب وصول شعوب البحر وقبل ظهور اليونان، ومما يؤكد ذلك أن الكتاب المقدس يشير إلى أن أسطول صور التجاري في عهد سليمان عليه السلام كان قادراً على القيام برحلات طويلة وشاقة[٦٢]، كما أن شواهد الأحوال تدل على أن هجوم شعوب البحر على شرق البحر المتوسط حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م قضى على نفوذ الميكينيين،الذين كانوا يسيطرون عليه،وأدى إلى ظهور الفينيقيين في انطلاق شديد.

ومرت ثلاثة قرون(الحادي عشر والعاشر والتاسع قبل الميلاد)قبل أن يبدأ اليونان في توسعهم،وبعدئذ حدث تنافس شديد بين اليونان والفينيقيين في البحر المتوسط في ميدان التجارة،وعلى أي حال فيمكن أن نستنتج بأن التوسع الفينيقي في البحر المتوسط بدأ حوالي سنة ١١٠٠ ق.م،كما ذكرنا سلفاً،أو قبل ذلك ببعض الوقت[٦٣]،وبعد ١١٠٠ ق.م تقريباً والتوسع الفينيقي يبدأ معكوساً،من الشرق إلى الغرب[٦٤].

وقد كان الصوريون على وجه التحديد يبحرون إلى منطقة قرطاجة،بسبب موقعها الإستراتيجي والجغرافي، حيث كان يتوافر نشاط بحري وزراعي، وكانت قرطاجة قد اكتسبت طابع المدينة المنظمة التي كانت تشرف عليها طبقة أرستقراطية،وكانت لها استقلالية منذ البداية[٦٥].

وهكذا فقد انتشرت المستعمرات الفينيقية من رأس الدلتا إلى ساحل "كليكيا"، كما انتشرت في جزر البحر الأبيض المتوسط[٦٦]،ومستعمراتهم في شرق البحر المتوسط أقدم

---

[60] Moskati, S., op.cit, p. 94.

[٦١] زيدون حمد المحيسن ومولاي محمد جانيف: المرجع السابق، ص ٧٦.

[٦٢] ملوك أول ١٠ : ٢٢.

[٦٣] محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

[64] Jodin, A., "Carthage et le Maroc phénicien: Travaux et publication", ***BAM*** 11, p. 65.

[٦٥] زيدون حمد المحيسن ومولاي محمد جانيف: المرجع السابق، ص ٧٦؛ وكذا: Picard, G. Ch., "Mythes et histoire aux débuts de Carthage", ***ACFP2*** 11, Consiglio nazionale delle ricerche, 1991, p. 287.

[66] Negbi, O. op.cit, p. 603

من مستعمراتهم في أفريقيا وأسبانيا،فقد استقروا في "قبرص"[٦٧] و"رودس" منذ منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد،ومن المحتمل أن أماكن استيطان الفينيقيين في "قبرص" وجدت منذ الألف الثاني قبل الميلاد،إذا أنها كانت بالتأكيد قائمة في بداية الألف الأول قبل الميلاد[٦٨].

ويبدو جلياً أن "قبرص" كانت مجالاً حيوياً لسكان الساحل الفينيقي،وموطناً للحضارة الفينيقية لا يقل في أهميته عن الساحل نفسه[٦٩]،كما أنها كانت المستعمرة الفينيقية الوحيدة التي تطورت، فلم تقل عن مثيلاتها في الغرب، ونظراً لقربها من الوطن الأم كان التبادل بينهما سائداً إلى درجة أنه كان من العسير التمييز بين ما هو فينيقي وما هو قبرصي الأصل،وبخاصة في مجال الفن،ولا سيما الفخار[٧٠] والخزف[٧١].

وبلغ الفينيقيون درجة عالية من التقدم في الفنون اليدوية،مثل صناعة العاج، الذي كانوا يستوردون خاماته من أفريقيا،ويصنعونها بمهارة بالغة،ثم يصدرونها إلى أنحاء حوض البحر المتوسط،وصناعة الأواني البرونزية والفضية والذهبية،وصناعة الأختام الاسطوانية،وصناعة المجوهرات التي وجدت آثارها في "قبرص" و"قرطاجة" و"سردينيا" و"أتروريا"[٧٢].

وربما كان من أهم مدن الفينيقيين في "قبرص" مدينة "كيتيون"[٧٣] Kition، التي يحتمل أن تكون هي نفسها "قارتيها داشتي" التي ذكرت النصوص الآشورية أن ملكها قدم خضوعه للملك الآشوري "سرجون الثاني"،وكانت "كيتيون" على ما يبدو هي أكبر المستوطنات الفينيقية في "قبرص"،ويؤكد ذلك أن البعثة الأثرية السويدية إلى "قبرص" كشفت عن "أكروبول" يعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد،يحتمل أن المستوطنين الفينيقيين الأوائل بنوه،وبخاصة لأن إعمار "قبرص" بسكان من الساحل الآسيوي كان

---

[٦٧] بدأت علاقة الفينيقيين مع جزيرة "قبرص" على الأغلب منذ وقت مبكر جداً، في القرن الرابع عشر ق.م. Harden, D., The Phoenicians, London 1952, p. 57.

[68] Stern, E., "New Evidence from Dor for the First Appearance of the Phenicians along the Northen Coast of Israel", ***BASOR*** 279, 1990, p. 28.

[٦٩] محمد غلاب: المرجع السابق، ص ٤٧٣.

[70] cf: Bikai, P.M., "The Phoenician Pottery of Cyprus, Leventis Foundation, Nicosia 1987; Stern, E., "A Phoenician-Cypriote Votive Scapula from Tel Dor: A Maritime Scene", ***IEJ*** 44, 1994, p. 1 – 12.

[٧١] Stern, E., op.cit, p. 28 – 32. وعن الفن وكذا الفنان الفينيقي القبرصي راجع: أرنست بابلون: المرجع السابق، ص ١٨٧ ـ ٢٣٥.

[٧٢] محمد عبده حتاملة: أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان - الأردن ١٩٩٦، ص ١٣٥ – ١٣٦؛ Moscati, S., op.cit, p. 49 – 79; Negbi, O. op.cit, p. 603.

[٧٣] أحمد ارحيم هبو ومحمد مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٠.

قبل استقلال المدن الفينيقية،وكان اتصال المنطقتين ببعضهما منذ عصر البرونز الوسيط[٧٤]على نطاق واسع،ويتبين من بعض الكتابات الفينيقية التي عثر عليها أنها ذات طابع يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد[٧٥]،وحيث يؤكد البعض أن أول مستعمرة فينيقية في "كيتيون" ترجع تحديداً لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد[٧٦].

ومن أهم مدن الفينيقيين في "قبرص" نجد أيضاً "جولجوي" و"أيداليون" و"تاموسوس" و"ماريون" و"لابيتوس"[٧٧]. ومن "قبرص" انتقل الفينيقيون إلى تأسيس مستعمرة في "إيداليون" وفي "تمساس" و"اموخوستا" وغيرها[٧٨]،ثم استقروا بعد ذلك في "صقلية"[٧٩] ثم "سردينيا".[٨٠]

ولعل من أهم المستعمرات الفينيقية في جزر البحر المتوسط إنما كانت "صقلية"[٨١]،التي اتخذوا منها محطة ينتفعون بها في أسفارهم الخطيرة إلى

"أعمدة هرقل"[٨٢]،نزلوا خاصة في "بانورموس"(بالرمو)واستوطنوا "سيلينونتي" أو "سوليئس"(سولونت)منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد،و"موتيا"في حوالي القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد[٨٣]،ومواضع هذه المدن الصقلية الثلاث مواضع اختيرت في عناية بالغة،مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع،وكانت"بانوروموس"في أحد

---

[٧٤] يؤرخ عصر البرونز المتوسط عادة بالفترة ما بين ٢١٠٠ إلى ١٥٥٠ ق.م تقريباً.

[٧٥] محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٥٨ ـ ٥٩.

[76] Negbi, O., op.cit, p. 601.

[٧٧] محمد أبو المحاسن عصفور: ص ٥٥.

[٧٨] أحمد ارحيم هبو ومحمد مصطفى:المرجع السابق، ص ٤٠.

[٧٩] استولى الفينيقيون على غربي"صقلية"عام٨٠٠ ق.م تقريباً،ثم على"سردينيا"و"كورسيكا"و"مالطة" و"قبرص".راجع: نجيب العقيقي:المرجع السابق،ص ٥٠.

[٨٠] محمد بيومي مهران" المرجع السابق، ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

[٨١] نقولا زيادة:المرجع السابق،ص ٢٨.

[٨٢] وهما الرأسان الصخريان الواقعان عند مضيق جبل طارق،وكان بحارة "صور" على الأرجح هم أول من وصل لمضيق جبل طارق،ولدى رؤية بحر بدون حدود اعتقدوا أنهم في طرف الدنيا،وسموا الصخرتين الضخمتين اللتين انتصبتا وجهاً لوجه أمامهم على الشاطئ الأوروبي "سوتا" Ceuta "عمودي ملكارث"،مفترضين أن المعبود قد غرسهما هناك بيده من أجل تحديد الأرض،وفيما بعد، وبعد التحقق من أن العالم لا ينتهي هناك تجاوزوا جبل طارق عدة مرات،لكن هذه الفكرة المرتبطة بالمضيق عاشت،وأخذها اليونان والرومان،وسموها "عمودي هرقل".راجع:ف.دياكوف و س. كوفاليف:المرجع السابق،ص ١٦٨.

[٨٣] محمد أبو المحاسن عصفور:المرجع السابق،ص ٥٦ ـ ٥٧.وقد لحق اليونان بالفينيقيين إلى صقلية سنة ٧٣٥ ق.م،ثم إلى أسبانيا،فتألب القرطاجنيون والأتروريون عليهم،ودمروا أسطولهم فيها.راجع: نجيب العقيقي:المرجع السابق،ص ٥١.

الخلجان،و"سوليئس"عند أحد الرؤوس الصخرية،و"موتيا" على جزيرة في بطن الخليج الواقع شمالي "رأس ليليبة" وكانت الأخيرة أهمهما جميعاً،حيث كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها "قرطاج" لمباشرة حروبها الصقلية،حتى حوصرت ودمرت سنة ٣٩٨ق.م[٨٤].

وطبقاً لرواية ديودور الصقلي،فلقد استقر الفينيقيون أيضاً في جزيرتي "مالطة" و"جولوس"،وذلك لأنها جزر واقعة في عرض البحر،صالحة للأساطيل،لتكون مرافئ ارتفاق عند المرور من شرق البحر المتوسط إلى غربيه[٨٥]،حيث أن "مالطة" كانت دون شك قاعدة فينيقية،تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد.واستوطن القرطاجيون كذلك جزر "جوزو" و"بانتلليريا" و"لامبيدوس" من نفس الفترة،أو بعدها بقليل[٨٦].

وكان للفينيقيين عدة مراكز في "كورسيكا" وفي "سردينيا"،ففي "سردينيا" كانت هناك أربع مدن رئيسية هي:"سولكس" أو "سولسيس"(سانت أنطونيو)،و"كارالكس" (كارلوفورت)، و"نورا" و"تاروس"،وكانت "سولكس" تقع على السفح الداخلي لجزيرة "أنتيكو" الحالية،إلى جانب ممر يصل الجزيرة بالأرض الرئيسية،وأما الثلاثة الأخرى فهي مرتفعات جبلية.

وكشفت التنقيبات الأثرية أن استيطان الفينيقيين في "كارلوفورت"،التي عرفت بجزيرة الصقور،كان أسبق من استيطانهم في "قرطاجنة"،التي ينسب إليها تأسيس "إيبيزا" في "جزر البليار" في حوالي سنة ٦٥٤ ق.م. كما يوحي اسم "بورت ماهون" في "مينورقا" بأنها مؤسسة بونية[٨٧].

ولم يعثر الآثاريون في "سولكس" إلا على آثار قليلة تكشف عن طبوغرافيتها الفينيقية،وإن عثر بها على فخار فينيقي يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد،ويعد أقدم ما عثر عليه في "سردينيا"،كما عثر على عدد من الألواح تشبه نظائر لها عثر عليها في حظائر "تانيت" في "قرطاج"،مما قد يشير إلى احتمال وجود معبد هناك.

وأما في"كارالس"(كالياري)حيث أظهرت أبنية من عصر متأخر الطبوغرافية الفينيقية بجلاء،فإن المحلة الأصلية تشبه من نواحي كثيرة نظيرتها بالقرب من مرتفع "سان إيليا" إلى الجنوب الشرقي،وربما كان موقع الميناء القديم،حيث توجد البحيرة المالحة اليوم شرقي "كالياري"،ولم يعثر هناك على مقابر من عصر مبكر،ولكننا نلتقي بالمقابر من القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده منتشرة على طول جانب التل،إلى الشمال الغربي من المدينة الحديثة.

---

[٨٤] محمد بيومي مهران" المرجع السابق،ص ٢٧٦.

[٨٥] ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٥ – ٩٦.

[٨٦] محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٥٧.

[٨٧] أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٥٧.

وأما "نورا" فتقع عند طرف شبه الجزيرة،ولها ميناء، ولم تشغل منذ العصر الروماني إلا بقلعة في العصور الوسطى،في مكان قلعة فينيقية،وقد عثر بها على مقابر من القرن السادس قبل الميلاد وما بعده،كما عثر على معبد للمعبود "تانيت"،ومجموعة ضخمة من اللوحات والأواني الجنزية،وأما "ثاروس" فتقع إلى الغرب من الجزيرة[٨٨].

وسعي الفينيقيون بالفعل للنزول ببلاد اليونان،وكثر تردد تجارهم عليها،بل يبدو أن بلاد اليونان لم تخل من مستعمرات فينيقية،يدل على هذا انتشار الأسماء السامية في بلاد اليونان،كما أن بعض المعبودات اليونانية متأثرة بالديانة السامية.

ومن الواضح أن الفينيقيين اتخذوا مراكز استيطان في أرخبيل اليونان،ففي جزيرة "رودس" استوطنوا المدينتين الهامتين "كاميروس" و"باليسوس"،حيث تشير الروايات اليونانية إلى أن ذلك تم بإرشاد شخص يدعى "فالاس"،في حوالي الوقت الذي حدثت فيه "حروب طروادة"[٨٩]،وقد طردهم اليونان أو الكاريون فيما بعد،كذلك تشير الروايات اليونانية إلى استيطان الفينيقيين في جزر إيجية أخرى،مثل "تاسوس" و"كيثيرا" و"ميلوس" و"ثيرا"،وفي جزيرة "كريت" أيضاً[٩٠].

ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية من البحر المتوسط إلا أوغلوا فيها، فانتشروا في "ساموس" و"كريت"،ولا يستبعد أن يكونوا على معرفة بجزر"ماديرا" و"كناري"،لقربها من الساحل الأفريقي الذي أنشأوا عليه مستوطناتهم[٩١]،بل ويذهب "ديودور الصقلي" إلى القول بأن أهل "مالطة" من أصل فينيقي،كما أن أهل "تراقيا" فينيقيوا الأصل أيضاً،وعلى أية حال فليس في جزيرة "مالطة" آثار لمدينة فينيقية،ومع ذلك فهناك مقابر "بونية" كثيرة،ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده،وهناك عدد قليل منها يرجع إلى القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد،وربما كان أشهر مواقعها هو حيث تقع اليوم مدينة "فاليتا"[٩٢].

السفن الفينيقية وأنواعها:

---

[٨٨] نجيب ميخائيل: سورية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٦٠.

[89] Strabon, histoire ancienne de l'Afrique du Nord, I, Paris 1913, p. 360.

[٩٠] محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٥٥.

[٩١] حسن عبد العزيز أحمد: المرجع السابق، ص ١٧٣.

[٩٢] نجيب ميخائيل:المرجع السابق،ص ١٦٠– ١٦١؛حسن أحمد محمود:المرجع السابق،ص ٣٩٥؛ فيليب حتى:المرجع السابق،ص ١١٣؛محمد بيومي مهران:المرجع السابق،ص ٢٧٨؛ وكذا: Diodorus, V, 12, 2 – 4; Autran, *"Phéniciens"*, essai de contribution à l'histoire antique de la Méditerranée, Paris 1920, p. 5; Hall, H. R., The Ancient Histy of the Near East, London 1963, p. 523.

تؤكد شواهد الأحوال على أن الفينيقيين كانوا أمة تجارية بحرية،وهذا ما فرضته عليهم البيئة الساحلية التي عاشوا فيها،مما كان سبباً في براعتهم في صناعة السفن[٩٣]التي كانت تعتبر وسيلة مواصلاتهم الرئيسية،ولبراعتهم في هذا النوع من الصناعة فقد لجأ إليهم مختلف الشعوب،ليحصلوا منهم على أساطيلهم.[٩٤]

وعرف الفينيقيون في بداية تاريخهم سفناً بسيطة،لا تقوى على أن توغل في ماء البحر،فلم تكن أكثر من زوارق مكشوفة،قليلة الارتفاع،قليلة الغوص،تكتسحها الأمواج العاتية،ولا تستطيع أن تحمل قدراً كبيراً من السلع،وكانت هذه السفن تصنع من خشب الأرز،ثم تدهن بالقار النباتي الذي لا يقوى على مغالبة الماء،ثم قطعوا شوطاً آخر في فن بناء السفن،فكبر حجمها بعض الشيء واستعانوا في تسييرها بالمجداف وبالشراع معاً،وأصبح سمكها كبيراً إلى حد ما[٩٥].(لوحة رقم ٣).

ومن السفن ما له ذيل مرفوع ومقدم في مستوى الماء،يحركها صفان من الجدافين،صف فوق صف،ولها على سطحها حاجز يجلس فيه الأسرى من الرجال والنساء،ولها في مركزها صار بقلاع أفقية،وهذه السفن هي سفن القتال (اللوحات أرقام٧، ٤، ٣).

وهناك مراكب خفيفة ذات مجاديف[٩٦]،حيث يوجد نوع آخر من السفن،ذيله ومقدمته مرفوعان على حد سواء،يسير بالمجاديف فقط،وهذه هي سفن النقل،إلا أنها تستعمل بحسب الرسوم المنقوشة للأغراض الحربية.

وفي كلا النوعين من السفن يضع الجنود تروسهم في صف متصل،للاستزادة من قوة الدفاع في السفينة،وتصور الدفة على شكل مجدافين عريضين في مؤخرة السفينة،أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار[٩٧].

---

[٩٣] محمد حسين فنطر:المرجع السابق،ص ١١١؛ cf: Casson, L., Ships and seamen ship in the Ancient World, Princeton 1971.

[٩٤] صلاح أبو السعود:المرجع السابق، ص ٤.وقد ورد هنا سلفاً قصتهم مع سليمان عليه السلام وكذا مع الفرعون "نخاو الثاني"، وكذلك كان أمر "سنحاريب" ملك آشور في القرن الثامن قبل الميلاد،حين أراد أن يعاقب القبائل النازلة على ضفاف الخليج الفارسي،فإنه التجأ إلى الفينيقيين،فبنوا له أسطولاً حربياً،واستطاع أن يقوم بحملته البحرية - ولم تكن نتائجها الحربية حاسمة - ثم قفل راجعاً، وقد وجد في قصر الملك "سنحاريب" رسم محفور يصور فصلاً من فصول هذه الحملة. راجع:ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية،ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة،مراجعة الدكتور طه حسين،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧،ص ٣٥٤،وانظر لوحة رقم(٣)بآخر البحث.

[٩٥] حسن أحمد محمود وآخرون:المرجع السابق،ص ٢٩٣.

[٩٦] ف.دياكوف و س.كوفاليف:المرجع السابق، ص ١٦٨.

ولدينا رسم لنوع آخر من السفن الفينيقية مأخوذ عن رسم محفور،محفوظ حالياً بمتحف اللوفر،أصله من قصر خرسباد[٩٨]،وتحمل هذه السفن في الرسم عروق الخشب، وهي من نوع سفن النقل،إلا انها مبسطة،وهي سفن كبيرة،طرفاها مرفوعان،وينتهي طرف المقدمة على شكل حصان،(لوحة رقم ٢).

ويُعرض في متحف برلين رأس غزال كان موضوعاً على طرف المقدمة في سفينة مصرية،وعلى هذا يكون رسم أطراف المقدمة في السفن على شكل رؤوس حيوانية عرفاً جارياً لدى البحريات القديمة.

وعثر الآثاريون في صيدا عام ١٩١٤م على تابوت من الحجر،وعلى أحد جانبيه نقش بارز لسفينة شراعية فريدة،(لوحة رقم١)،جسمها مستدير،وذيلها مرتفع جداً،على شكل رقبة البجع،ومقدمتها تنتهي بسقيفة حارس،ولها قلع كبير مربع محمول على صار مركزي هو الذي يحرك السفينة،وفي المقدمة صار آخر صغير الحجم،بقلع مربع،يستعان به على تحريك الدفة وتوجيه السفينة من مركز فوقها،وتتكون الدفة من مجدافين،وأمثال هذه الدفات لا يجيد القيام بتحريك السفن.(لوحة رقم ٤).

ونجد نفس هذا النوع من السفن مسجل على عملة ببلوس،من أيام "هليوجبل" Héliogabale(لوحة رقم ٥)،وبين هذا النوع الأخير وبين ما نعرفه من سفن روما التجارية شبه كبير،دال على تأثر متبادل بين ببلوس وروما،ونحن نعلم أنه لم يكن للرومان في وقت الحروب البونية بحرية،فاضطروا وقتها إلى أن ينسخوا بحرية خصومهم،ولهذا فإنه يجوز لنا ان نذهب إلى أسبقية السفن التجارية الفينيقية،ويطلق الفينيقيون على الأراضي البعيدة الواقعة إلى غربي البحر الأبيض المتوسط اسماً غامضاً هو "ترسيس"[٩٩] Tharsis ونحن نعلم من التوراة[١٠٠] أن اسم سفينة "ترسيس" يُطلق على السفن التي تقصد اتجاهات مختلفة[١٠١].

---

[٩٧] ولما غلب الفرس على فينيقيا فقد أصبح الأسطول الفينيقي ملكاً للفرس،وصار ملك صيدا الأمير الكبير لملك الفرس،وكثيراً ما ترسم على النقود الفينيقية صور سفن قريبة الشبه جداً بالصور المرسومة بالحفرفي قصرسنحاريب.انظر:ج.كونتنو:المرجع السابق،ص٣٥٤(لوحةرقم٥بآخر البحث).

[٩٨] اتخذ الآشوريون من مدينة "نينوى" عاصمة لهم بدلاً من مدينة "آشور"،ولكن الملك "سرجون الثاني" (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) تركها واتخذ بدلاً منها مدينة "خرسباد" مركزاً لحكمه،وشيد فيها قصر خرسباد المذكور،غير أن أحفاده من بعده عادوا إلى "نينوى".

[٩٩] اسم "ترشيش" الذي نصادفه في كتابات التوراة وآشور هو غالباً اسم فينيقي، بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل تكرير، وقد اكتسبت تسمية "ترشيش" بسبب بعد البلاد معنى غامضاً، وصارت تعني المغرب الأقصى، أو بعد البلاد التي بلغتها التجارة الفينيقية، انظر: محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية، ص ٢٧٥، وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن "ترشيش" هي "طرطوس" في "كليكيا"، حيث كانت هناك مستعمرة فينيقية، كما أن طقوس عبادة البعل فيها تشبه التي في "صور" و"قرطاجنة".

غير أن العمل الجريء حقاً،والذي ينسب إلى الفينيقيين،هو مضيهم الجاد في فن بناء السفن إلى أبعد غاية،حينما توصلوا إلى صناعة السفن العظيمة ماخرة المحيطات،وكانت طرازاً جديداً،يبلغ طول الواحدة منها حوالي سبعين قدماً[١٠٢]،فقد قلب هذا الاختراع فن الملاحة[١٠٣]رأساً على عقب،فاشتدت بعده جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه،وتضاعف نشاطهم،وكذلك تضاعفت تجارتهم[١٠٤]،وجعلهم تنقلهم بين مختلف الأقطار كما ذكرنا سلفاً،بالإضافة إلى ابتكارهم في مجال الملاحة والكتابة،رسل حضارة،ينقلون مظاهرها بين قطر وآخر،فكانوا بالفعل خير ناقل لمختلف الحضارات التي مروا عليها،وهم الذين جعلوا حوض البحر الأبيض المتوسط كله مسرحاً لحضارتهم وتجارتهم،منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد،وأصبح لهم هذا التاريخ المسجل اليوم بين أيدينا.

راجع: قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢١٦؛ ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٦؛ فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١١٢.

[١٠٠] " ... إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش في الأول لتأتي بينك من بعيد، وفضتهم وذهبهم ...". (أشعيا ٦٠ : ٩).

[١٠١] ويعلق كونتنو على اسم سفينة "ترسيس" بأن المراد فقط هو الإشارة إلى نوع خاص من السفن على نحو ما يشير الإنجليز باسم Indians إلى نوع خاص من السفن دون أن يكون مما يقصد الهند حتماً، بل لأن هذا النوع هو الذي كان مخصصاً لرحلة الهند، ولهذا فيعتقد أن صورة السفينة المنقوشة على التابوت الصيداوي تصور لنا رسماً تخطيطياً لسفينة "ترسيس"، وقد كنا قبل ذلك لا نعرف لها شكلاً. انظر:ج.كونتنو: المرجع السابق،ص ٣٥٥ــ ٣٥٦.

[١٠٢] نجيب العقيقي:المرجع السابق،ص ٥٠.

[١٠٣] لقد مخر الفينيقيون عباب البحر المتوسط،لما فيه من فائدة لمدنهم بالدرجة الأولى،ولم يكن هذا التفوق البحري ممكناً لو لم يظهر الفينيقيون تمرساً ممتازاً في شئون الملاحة.انظر:فرانسوا ديكريه: قرطاجة أو إمبراطورية البحر،ترجمة: عز الدين أحمد عزو،مراجعة الدكتور عبد الله الحلو،دمشق ١٩٩٦،ص ٣١.

[١٠٤] حسن أحمد محمود وآخرون:المرجع السابق،ص ٢٩٣.

Abbreviations:

1. ÄA: *Ägyptologische Abhandlungen,Wiesbaden.*

2. Abr-Nahrain: *an annual under the auspices of the Department of Semitic Studies, University of Melbourne.*

3. ACFP2: *Atti del II congresso internazionale di studi fenici e punici, 1-3, Roma.*

4. AJA: *American Journal of Archaeology, Pennsylvania.*

5. BAM: *Bulletin d'Archéologie Marocaine, Rabat*.

6. BASOR:*Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Boston.*

7. IEJ: *Israel Exploration Journal, Israel Exploration Society, Hebrew University, Jerusalem.*

8. SMA: *Studies in Mediterranean Archaeology, Göteborg.*

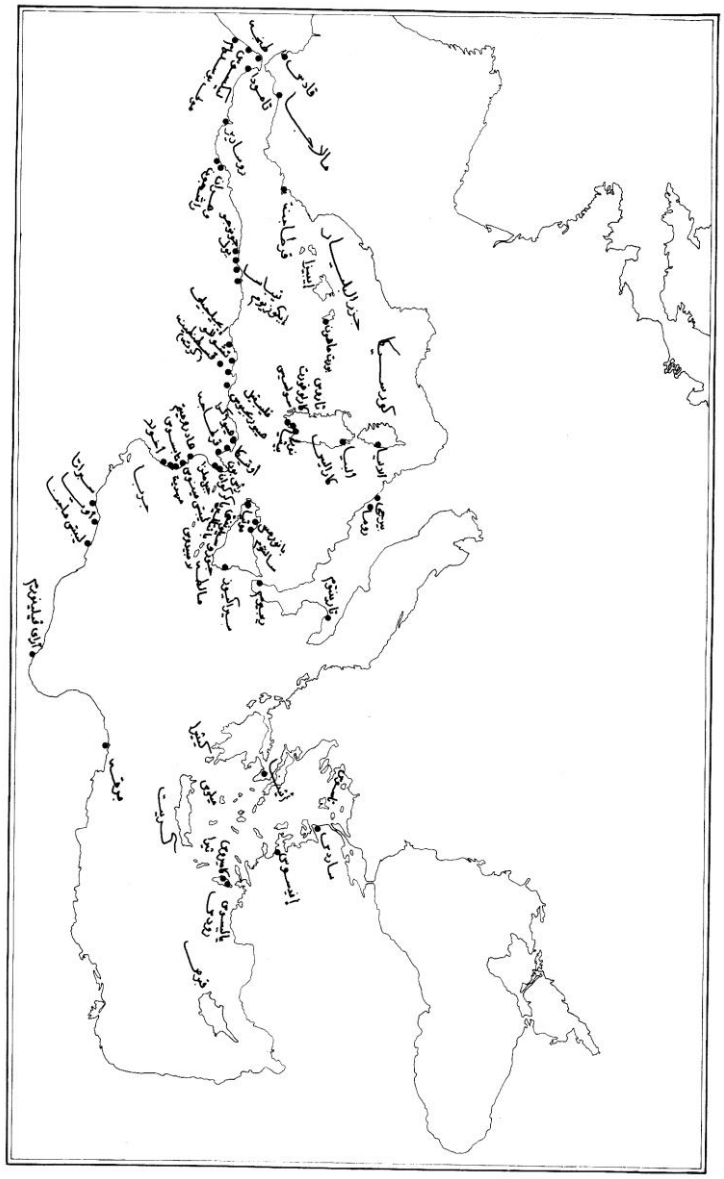

خريطة رقم (١): نشاط الفينيقيين في حوض البحر الأبيض المتوسط

(محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، ص ٥٨)

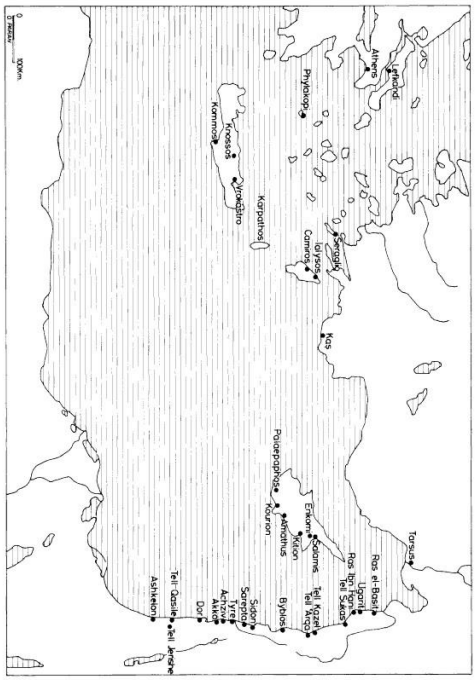

خريطة رقم (٢): المدن الفينيقية وجزر البحر الأبيض المتوسط
(Negbi, O., Early Phoenician, p. 602, Fig. 2)

لوحة رقم (١): سفينة شراعية ذيلها على شكل رقبة البجع على تابوت مكتشف في صيدا
(محمد فنتر: على هدي الفينيقيين، ص ٥)

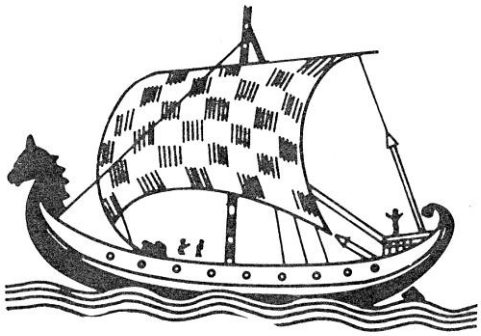

لوحة رقم (٢): سفينة فينيقية قرطاجية
(محمد عبده حتاملة: إيبيريا قبل مجيء العرب، ص ١٢٥)

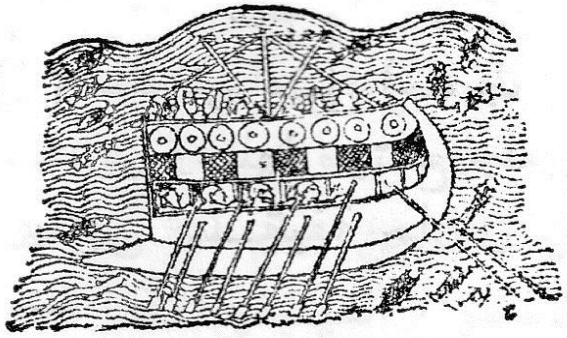

لوحة رقم (٣): سفينة حربية فينيقية
(ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ص ٣٥٦، شكل ٦٠)

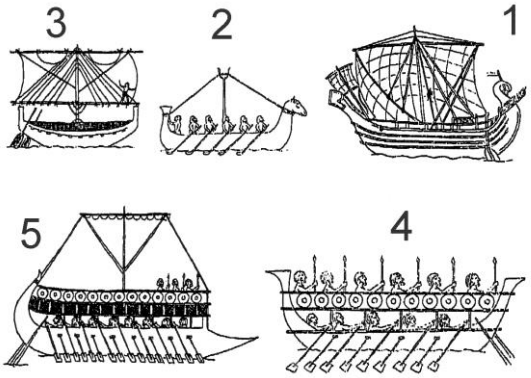

لوحة رقم (٤): سفن فينيقية: [١]: سفينة تجارية من القرن ٢ ق.م، [٢]: سفينة تجارية من القرن ٧ ق.م، [٣]: سفينة تجارية من القرن ١٤ ق.م، [٤]و [٥]: سفينتان حربيتان من القرن ٧ ق.م
(كارلهاينز برنهردت: لبنان القديم، ص ١٢٥، شكل رقم ٢٥)

لوحة رقم (٥): سفينة فينيقية بشراع وأربعة عشرة مجدافاً ومجدافين كبيرين للدفة

لوحة رقم (٦): عملة من ببلوس تحمل صورة سفينة فينيقية بمجاديف

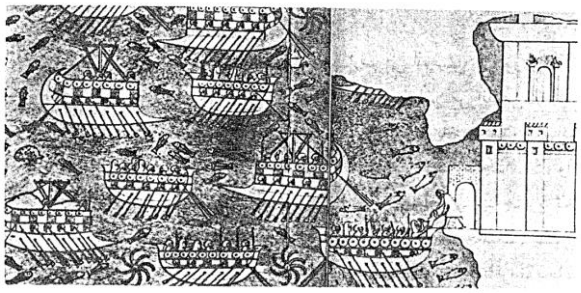

لوحة رقم (٧): لولي ملك صور وصيدا يفر هارباً من الجيش الآشوري باتجاه قبرص
(فرانسوا ديكريه: قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ص ٣٤)